حروب أمريكا القادمة
هل تكون ايران الهدف التالي؟

سيمور هيرش
ترجمة: زهير رضوان

يمثل هذا النص الجزء الاول من الترجمة العربية لمقالة الباحث والكاتب الامريكي سيمور هيرش، والتي تحمل في الاصل العنوان: (Coming Wars، والتي نشرها في مجلة (The New Yorker)، عدد ١٨/١/٢٠٠٥,

لم تكن اعادة انتخاب بوش نصره الوحيد، لقد عزز الرئيس ومستشاروه للامن القومي سيطرتهم على المحللين الستراتيجيين في الجيش والمخابرات وعلى العمليات السرية لمستوى لانظير له منذ نشوء مسألة (الامن القومي) بعد الحرب العالمية الثانية، يملك الرئيس بوش برنامجاً طموحاً وعدائياً ضد ايران، وضد أهداف اخرى في الحرب الدائرة على الارهاب خلال ولايته الثانية مستغلاً سيطرته تلك، وستواصل وكالة المخابرات المركزية اتحدارها الى منزلة ادنى وستستخدم كعامل ميسر لسياسة منبثقة عن الرئيس ونائبه ديك تشيني وهذه العملية جارية الان بشكل جيد.

على الرغم من تدهور الوضع الامني في العراق، لم تعد ادارة بوش النظر في هدفها السياسي طويل الامد في الشرق الاوسط، وهو اقامة الديمقراطية في ارجاء المنطقة، لقد اعتبرت ادارة الرئيس اعادة انتخاب بوش دليلاً على دعم امريكا لقراره بشن الحرب على العراق، كما هددت اعادة الانتخاب تثبيت مركز المحافظين الجدد في القيادة المدنية للبنتاغون، وهم الذين دافعوا عن قرار الغزو من ضمن هؤلاء: بول وولفويتس نائب وزير الدفاع، ودوغلاس فيث وكيل الوزير لشؤون السياسية، وطبقاً لمسؤول كبير سابق في المخابرات استقبل وزير الدفاع دونالد رامسفيلد اعضاء هيئة الاركان عقب الانتخابات واخبرهم ان الرافضين للحرب قد اسمعوا رسالتهم، وان الشعب الامريكي قد رفض هذه الرسالة، واضاف رامسفيلد ان الولايات المتحدة ملتزمة بالبقاء في العراق وليس هنالك من فرضية ثانية.

قال لي هذا المسؤول السابق: (انها حرب ضد الارهاب ومالحرب في العراق الاحملة واحدة حسب. ان ادارة الرئيس بوش تعتبر الشرق الاوسط منطقة حرب كبيرة وفيما بعد ستكون لنا حملة على ايران، لقد اعلنا الحرب وان الاشرار، اينما كانوا، هم اعداؤنا، انها صيحة الحرب الاخيرة.

امامنا اربع سنوات، ونحن نريد ان نعلن عند نهايتها اننا كسبنا الحرب على الارهاب.

قد يكون بوش وتشيني هما اللذان وضعا هذه السياسة الا ان رامسفيلد هو الذي ادار عملية التطبيق وتحمل الكثير من الانتقادات العلنية عندما لم تسر الامور على مايرام، على غرار ماحصل من اساءة لمعاملة سجناء (ابو غريب) او نقص في التدريع الكافي لحماية المركبات في العراق.

مع ان المشرعين الجمهوريين والديمقراطيين طالبوا بأزاحة رامسفيلد، ومع انه لايحظى بالرضا في الجيش الا ان اعادة تعيينه وزيراً للدفاع لم تكن محل شك ابدا، بل ان رامسفيلد سيكون اكثر اهمية خلال الولاية الثانية، في العديد من المقابلات التي اجريتها مع المسؤولين السابقين والحاليين في الجيش والمخابرات، قيل لي ان البرنامج/الخطة قد قرر قبل الانتخابات الرئاسية، والكثير منه سيكون من مسؤولية رامسفيلد، ان الحرب على الارهاب ستتوسع، وستوضع تحت السيطرة المباشرة للبنتاغون، ان الرئيس بوش قد وقع سلسلة من الاوامر تخول مجموعات الكوماندوس السرية ووحدات القوات الخاصة الاخرى بالشروع في عمليات سرية ضد اهداف ارهابية مشتبه بها في عشر دول في الشرق الاوسط وجنوب اسيا.

ان قرار الرئيس يمكن رامسفيلد من القيام بعمليات لاتخضع للتقييدات القانونية المفروضة على وكالة المخابرات المركزية، فطبقاً للقانون الساري المفعول، ينبغي لجميع نشاطات وكالة المخابرات المركزية في ماوراء البحار ان تلقى موافقة الرئيس وان تبلغ لجان الاستخبارات في مجلس الشيوخ والنواب عنها (هذا القانون شرع بعد سلسلة من الفضائح في سبعينيات القرن الماضي حين تورطت وكالة المخابرات المركزية في عمليات تجسس محلية ومحاولات اغتيال قادة اجانب) قال لي المسؤول السابق: (ان وزارة الدفاع ليست ملزمة بتبليغ الكونجرس عن اي من هذه العمليات فهي لاتصف هذه العمليات بمصطلح (العمليات السرية)، وهي الصفة الاقرب الى عمل وكالة المخابرات المركزية، ان هذه العمليات، بالنسبة الى وزارة الدفاع، هي عمليات (استطلاع معاد) ولن يتم اخبار القيادات العامة للجيش الامريكي في تلك المناطق عنها).

في العديد من المقابلات التي اجريتها، قيل لي مراراً ان الهدف الستراتيجي التالي سيكون ايران اخبرني المسؤول السابق ان (الجميع يقولون: ليس بامكانك ان تكون جاداً في استهداف ايران، انظر الى العراق، لكن الرد هو: لقد تعلمنا بعض الدروس، وهي ليست دروساً عسكرية، بل سياسية، ولن نعتمد هذه المرة على رجال الوكالة عديمي القيمة، ليس هنالك من نهايات سائبة، ولهذا السبب تم استبعاد وكالة المخابرات عن العملية برمتها).

لاكثر من عام، رأت فرنسا والمانيا وبريطانيا ودول اخرى في الاتحاد الاوروبي ان منع ايران من الحصول على سلاح نووي هو سباق مع ادارة بوش، لقد كانت هذه الدول تفاوض القيادة الايرانية لحملها على التخلي عن طموحاتها النووية مقابل المساعدة الاقتصادية والفوائد التجارية وافقت ايران على التوقف مؤقتاً عن برامج التخصيب، التي تولد وقوداً لمشاريع الطاقة النووية ولكنها ايضاً تنتج مواد انشطارية (تقول ايران ان هذه المشاريع قانونية طبقاً لمعاهدة الحد من انتشار التسلح النووي التي وقعت ايران عليها، وليس في نيتها انتاج قنبلة نووية).

لكن الهدف من جولة المباحثات الجارية الان، التي بدأت في كانون الاول الماضي في بروكسل، هو اقناع طهران بالمضي اكثر وتفكيك منشآتها، ايران، في المقابل، تصر على حاجتها لرؤية بعض الفوائد الملموسة من الاوروبيين، كتقنية انتاج النفط ومعدات صناعة ثقيلة، وربما السماح لها بشراء اسطول من طائرات ايرباص (يحظر على ايران الحصول على التكنولوجيا واغلب السلع خاضعة للمنع).

كان الاوربيون يلحون على ادارة بوش بالانضمام الى هذه المباحثات، وقد رفضت الادارة ذلك، تجادل القيادة المدنية في البنتاغون بان تقدماً دبلوماسياً بشأن التهديد النووي الايراني لن يحدث مالم يكن هنالك تهديد موثوق به بعمل عسكري، قال لي مسؤول كبير في الوكالة الدولية للطاقة الذرية: (المحافظون الجدد يقولون ان المفاوضات هي عملية سيئة، وان الشيء الوحيد الذي يفهمه الايرانيون هو الضغط، ويجب ان يكون الضغط كبيراً الى حد بعيد).

المشكلة الرئيسة هي ان ايران نجحت في اخفاء نطاق برنامجها النووي ومدى التقدم الذي حققته، تعتقد الكثير من وكالات المخابرات الغربية، ومن ضمنها مخابرات الولايات المتحدة، ان ايران على مبعدة ثلاث او خمس سنوات من القدرة على انتاج رؤوس نووية بشكل مستقل، مع ان عملها على نظام اطلاق الصواريخ قد حقق تقدماً كبيراً، وتعتقد وكالات المخابرات الغربية والوكالات الدولية للطاقة الذرية ان ايران تواجه مشكلات تقنية واسعة مع منظومة اسلحتها، ولاسيما في انتاج غاز الهيكسافلورايد اللازم لتصنيع الرؤوس النووية.

اخبرني مسؤول كبير في وكالة المخابرالمركزية، تقاعد مؤخراً وكان من بين عديدين تركوا الوكالة، بأنه كان على اطلاع على هذه التقديرات، واكد ان ايران تواجه مشكلات كبيرة في عملها التسلحي، وأقر كذلك بتقديرات الوكالة بشأن البرنامج النووي الايراني التي تتطابق مع تقديرات الاوروبيين، مفترضاً ان ايران لاتحصل على مساعدة خارجية.

وقال لي هذا المسؤول المتقاعد: (ان الغامض في الامر هو من يزود ايران بمعلومات ناقصة: كوريا الشمالية؟ باكستان؟ ونحن لانعرف ماذا ينقصهم).

اخبرني احد الدبلوماسيين الغربيين ان الاوروبيين يعتقدون انهم في موقع الخاسر طالما ان الولايات المتحدة ترفض المشاركة، وقال هذا الدبلوماسي: (ان فرنسا والمانيا وبريطانيا لايمكنهم النجاح وحدهم، والجميع يعرف ذلك، اذا بقيت الولايات المتحدة خارج العملية، فاننا لن نحظى بالدعم اللازم، وسوف تنهار جهودنا).

في هذه الحالة، سيكون البديل هو التوجه الى مجلس الامن ولكن اي قرار يفرض عقوبات على ايران سيلقى معارضة الصين او روسيا، وبعدها سيوجه اللوم الى الامم المتحدة، وسيقول الامريكيون ان الحل الوحيد هو ضرب ايران).

اشار احد الدبلوماسيين الاوروبيين الى انه من المقرر ان يقوم الرئيس بوش بزيارة الى اوروبا في شباط (الحالي) الى ان هنالك قولاً شاع في الاونة الاخيرة من البيت الابيض عن تحسين علاقة الرئيس مع حلفاء امريكا الاوروبيين، في ذلك السياق، قال لي السفير: (ان مايحيرني هو ان الولايات المتحدة لاتساعدنا في برنامجنا، كيف تستطيع واشنطن المحافظة على موقعها من دون ان تأخذ بالحسبان مسألة الاسلحة؟).

مما لايثير العجب ان تكون الحكومة الاسرائيلية متشككة بالاسلوب الاوروبي، قال سيلفان شالوم وزير الخارجية الاسرائيلي في مقابلة له في القدس: (لايعجبني مايجري، لقد تشجعنا في البداية عندما اشترك الاوروبيون، لقد اعتقدوا، لفترة طويلة، ان المسألة مشكلة اسرائيلية.

ولكن عندما فهموا ان هذه الصواريخ الايرانية ذات مديات طويلة وانها تصل الى اوروبا زاد قلقهم، لقد كان اسلوبهم هذ استعمال العصا والجزرة، لكننا لانرى الان سوى الجزرة، اذا لم يذعن الايرانيون فان اسرائيل لاتستطيع العيش وايران تمتلك قنبلة نووية).

في مقالة كتبها الخبير في الشؤون الايرانية ونائب مدير معهد واشنطن لسياسات الشرق الادنى، باتريك كلاوسن، اوضح وجهة النظر القائلة بان القوة او التهديد باستعمالها هي اداة حيوية في المفاوضات مع ايران، يرى كلاوسن ان كانت اوروبا تريد التعاون مع ادارة بوش فعليها ان (تذكر ايران بان الخيار العسكري سيبقى على مائدة المفاوضات).

واضاف ان المجادلة بان المفاوضات الاوروبية تتوقف على واشنطن تشبه (عذراً استباقياً لانهيار المباحثات الاوروبية-الايرانية).

في محادثة لاحقة معي، اقترح كلاوسن انه اذا كان العمل العسكري لايمكن تلافيه فانه (سيكون لمصلحة اسرائيل وواشنطن ان تقوم بعمل عسكري سري، ان اسلوب هذه الادارة هو استعمال القوة الساحقة (الصدمة والترويع) ولكننا لانحصل الا على قضمة واحدة من التفاحة).

هنالك العديد من الخبراء العسكريين والدبلوماسيين الذين لايتفقون مع فكرة ان العمل العسكري، ايا كان مداه، هو الوسيلة الصحيحة.

شهرام شوبن الباحث الايراني ومدير الابحاث في معهد جنيف للسياسة الامنية، قال لي: (من الوهم الاعتقاد بان هنالك خياراً عسكرياً امريكياً او اسرائيلياً سليماً تجاه ايران، الاسرائيليون يرون في مشكلة البرنامج النووي الايراني مشكلة دولية، ويقولون للغرب: (قم بالامر انت، والا فان قواتنا الجوية ستتولى ذلك) في عام ١٩٨١ حطمت القوة الجوية الاسرائيلية المفاعل العراقي(تموز) واعادت البرنامج النووي العراقي عدة سنوات الى الوراء يقول شوبن: (لكن الوضع الان اكثر تعقيداً واكثر خطورة)، واضاف: (ان ضرب المفاعل العراقي وفع الايرانيين الى اخفاء البرنامج النووي تحت الارض، وجعلوه اكثر حصانة لقد نشروه في مواقع مختلفة، ليس من الممكن ان تكون متيقناً بعد هجوم واحد من أنك تخلصت منه ولن يكون بامكان الولايات المتحدة واسرائيل التأكد من ان كل المواقع قد ضربت، وكم هي السرعة اللازمة لأعادة بنائها في هذه الاثناء، ستكون الولايات المتحدة واسرائيل في انتظار الهجوم الايراني المقابل، الذي قد يكون عسكريا، او ارهابيا، او دبلوماسياً.

ان ايران تمتلك صواريخ بعيدة المدى وعلاقات جيدة مع حزب الله الذي يملك طائرات من دون طيار، ليس بالامكان البدء بالتفكير كيف يكون رد الايرانيين).

اضاف شوبن ان بأمكان ايران اعلان براءتها من معاهدة الحد من انتشار الاسلحة النووية، وقال: (من الافضل ان تجعل الايرانيين يخشون ضمن النظام والا فان الايرانيين سيعمدون الى التخلي عن المعاهدة وعن المفتشين وستقدم ايران نفسها بوصفها ضحية، بينما العالم ينظر الى المعاهدة تتفكك امام اعينه).

ان الادارة الامريكية تدير مهمات استطلاع سرية داخل ايران منذ الصيف الماضي في الاقل وتركز اغلب هذه المهمات على جمع معلومات استخبارية عن المواقع النووية والكيمياوية والصاروخية، المعلن عنها والمشتبه بها.

والهدف هو تحديد وعزل اكثر من ثلاثين موقعاً بالامكان تدميرها بضربات دقيقة وبغارات كوماندوس قصيرة الاجل، اخبرني مستشار حكومي له ارتباطات وثيقة مع وزارة الدفاع ان (المدنيين في البنتاغون يريدون الذهاب الى ايران وتدمير البنية التحتية العسكرية قدر الامكان).

بعض هذه المهمات تتطلب تعاوناً غير عادي، على سبيل المثال، اخبرني المسؤول الكبير السابق في المخابرات ان قوة مهمات خاصة امريكية قد تمركزت في جنوبي اسيا وتعمل الان بتعاون وثيق مع مجموعة من العلماء والتقنيين الباكستانيين الذين سبق لهم التعامل مع نظرائهم الايرانيين (في العام ٢٠٠٣، كشفت الوكالة الدولية للطاقة الذرية عن ان ايران حصلت سراً على تقنية نووية من باكستان طوال اكثر من عقد، وانها حجبت هذه المعلومات عن المفتشين) ان قوة المهمات الخاصة الامريكية مجهزة بمعلومات من باكستان وقد تسللت هذه القوة من شرق ايران، من افغانستان، للتفتيش عن منشآت تحت الارض يعرف افرادها بـ(الشماعون)، وهذه القوة لها القدرة على اخذ عينات من الجو للكشف عن نشاطات اشعاعية وعلى ادلة اخرى على برامج التخصيب النووي ان الحصول على هكذا ادلة يشكل قلقاً ضاغطاً على ادارة بوش.

قال لي المسؤول الكبير السابق في المخابرات: (انهم لايريدون ارتكاب اي خطأ استخباري مثل خطأ اسلحة الدمار الشامل في العراق ليس باستطاعة الجمهوريين تحمل خطأ اضافي كهذا، فأنك لاتتعلم من رفسة البغل الثانية).

واضاف هذا المسؤول ان حكومة بروير مشرف حصلت على ثمن هذا التعاون لقد اكد الامريكيون ان باكستان غير ملزمة بتسليم عبد القدير خان، أبو القنبلة النووية الباكستانية، الى الوكالة الدولية للطاقة الذرية او الى اية سلطات دولية للمساءلة.

فطوال عقدين من الزمان، ارتبط عبد القدير خان مع كونسيورتيوم عريض من النشاطات النووية في السوق السوداء، وفي العام الماضي، تظاهر مشرف بانه صدم عندما (أعترف) خان بنشاطاته هذه عندما جوبه بأدلة قاطعة، بعد بضعة ايام، عفا عنه مشرف ورفض السماح للوكالة الدولية للطاقة الذرية او المخابرات الامريكية بأجراء مقابلة معه، يقال الان ان خان قيد الاقامة الجبرية في (فيللا) في اسلام آباد، اوضح المسؤول الكبير السابق الامر على النحو الاتي: (انها صفقة، مقايضة اخبرنا عما تعرفه عن ايران ونحن نترك خان ورجاله وشأنهم، انها رؤية المحافظين الجدد عن الكسب قصير الاجل مقابل الكلفة الباهظة طويلة الاجل، انهم يريدون اثبات ان بوش رجل مناهض للارهاب، باستطاعته التعامل مع ايران وتهديدها النووي، مقابل الهدف طويل المدى، وهو القضاء على السوق السوداء في انتشار السلاح النووي).

جاءت الصفقة في وقت خول فيه مشرف بتوسيع خزين الاسلحة النووية الباكستانية، على نحو ماكشفه دبلوماسي باكستاني سابق رفيع المستوى، اضاف هذا الدبلوماسي (ان باكستانية، لاتزال بحاجة الى قطع وتجهيزات، وهي بحاجة الى شرائها من السوق السرية، والولايات المتحدة لم تفعل شيئاً لمنعها).

كما ان هنالك تعاوناً وثيقاً، لم يعترف به، مع اسرائيل: المستشار الحكومي ذو الارتباطات مع البنتاغون قال: ان المدنيين في وزارة الدفاع، بقيادة دوغلاس فيث، كانوا يعملون مع المستشارين والمخططين الاسرائيليين على الكشف والتدقيق في اهداف نووية كامنة واسلحة كيمياوية وصواريخ داخل ايران (بعد ضرب المفاعل العراقي، عمدت ايران الى وضع مواقعها النووية في مناطق نائية في الشرق، في محاولة منها لابعادها عن مدى القوى الضاربة للبلدان الاخرى، ولاسيما اسرائيل، ولكن البعد لم يعد يوفر حماية، ومع ذلك، حصلت اسرائيل على ثلاث غواصات قادرة على اطلاق صواريخ كروز، كما زودت بعض طائراتها بخزانات وقود اضافية، واضعة بذلك طائرات أف١٦-آ الاسرائيلية ضمن مدى اغلب الاهداف الايرانية) واضاف المستشار الحكومي: (انهم يعتقدون ان بالامكان تدمير ثلاثة ارباع الاهداف الكامنة عن طريق الجو، اما الربع المتبقي فيقع قرب المراكز السكانية او هو مدفون عميقاً جداً تحت الارض بحيث يصعب استهدافه،وان وبعض المواقع المشتبه بها يجب التحقق منها من قبل مجاميع الكوماندوس الامريكية والاسرائيلية قبل ضربها).

ان خطط البنتاغون الطارئة لغزو عريض لايران يتم تحديثها ايضاً فالستراتيجيون في القيادة المركزية للولايات المتحدة في فلوريدا طلب منهم تنقيح خطة الحرب العسكرية لتنهض بأعباء غزو بري وجوي شاملين لايران.

ان تنقيح الخطة يكون مفهوماً ان كانت ادارة بوش تنوي الهجوم ام لا، لان الجغرافية السياسية للمنطقة قد تغيرت على نحو دراماتيكي في السنوات الثلاث الماضية، في السابق، كان على قوات الغزو الامريكية الدخول الى ايران عن طريق البحر، عبر الخليج الفارسي او خليج عمان، اما الان فان القوات بامكانها التحرك براً، من افغانستان او العراق، وحدات الكوماندوس ومصادر القوة الاخرى بأمكانها الدخول من خلال القواعد في جمهوريات اسيا الوسطى.

من المحتمل ان بعض المسؤولين الامريكيين الذين يتحدثون عن تقويض البنية التحتية النووية لايران انما يفعلون ذلك جزءاً من حملة الدعاية التي تهدف الى الضغط على ايران للتخلي عن خططها التسليحية.

ان كان الامر كذلك، فان الاشارات ليست واضحة دائماً الرئيس بوش، الذي وصم ايران بعد احداث الحادي عشر من ايلول بانها واحدة من دول (محور الشر)، يؤكد الان وعلناً الحاجة الى الدبلوماسية في معالجة هذا الامر، فقد قال في واحدٍ من مؤتمراته الصحفية العام الماضي: (ليس لدينا الان نفوذ كبير مع الايرانيين، يجب ان تكون الدبلوماسية هي الخيار الاول، ودائماً هي الخيار الاول لاية ادارة تحاول حل قضية التسلح النووي، وسنبقى نلح على الدبلوماسية).

في مقابلاتي التي اجريتها طوال الشهرين الماضيين، حصلت على وجهة نظر اكثر قساوة، يعتقد الصقور في ادارة بوش انه سيتضح قريباً ان طريقة التفاوض الاوروبية لن تنجح، وعندها ستتصرف الادارة الامريكية، قال لي المسؤول السابق في المخابرات: (اننا لانتعامل هنا مع مجموعة من خيارات مجلس الامن القومي، لقد اجتزنا هذه المرحلة ان الامر ليس (هل نفعل شيئاً ضد ايران؟) اننا نفعل ذلك الان!.

ان الاهداف المباشرة للهجمات ستكون تدمير قدرة ايران على ان تصبح دولة نووية، او تعطيل ذلك مؤقتاً، لكن هنالك بواعث اخرى، ذات اهمية مساوية، جارية بالفعل، اخبرني المستشار الحكومي ان الصقور في البنتاغون، وفي مناقشاتهم الخاصة، يلحون على هجمة محدودة على ايران، لانهم يعتقدون ان ذلك قد يؤدي الى الاطاحة بالقيادة الدينية، قال المستشار الحكومي: (هنالك صراع في ايران بين الوطنيين العلمانيين والاصلاحيين من جهة وحركة الاصوليين الاسلاميين من جهة ثانية عندما تتحطم هالة القدسية التي يتمتع بها الملالي، وتتحطم معها قدرتهم على خداع الغرب، فان النظام سوف ينهار)، على غرار ماحصل للانظمة الشيوعية في رومانيا والمانيا الشرقية والاتحاد السوفياتي، ان رامسفيلد ودولفويتس يؤمنان بهذا.

قال فلنت ليفريت الباحث في شؤون الشرق الاوسط، الذي عمل في مجلس الامن القومي في ادارة بوش: (ان الفكرة القائلة ان الهجوم الامريكي على المنشآت النووية الايرانية سوف تنتج عنه انتفاضة شعبية هو تضليل كبير، عليك ان تفهم ان الطموح النووي في ايران مدعوم من جميع الوان الطيف السياسي وان الايرانيين سوف يدركون ان الهجمات على هذه المواقع هي هجوم على طموحاتهم بأن يكونوا لاعبين اساسيين في المنطقة وان تكون ايران دولة عصرية تتوافر لها المهارات التكنولوجية). وقد حذر ليفريت من ان هجوماً امريكياً ان حدث (ستنتج عنه حركة ارتجاعية ايرانية ضد الولايات المتحدة وسوف يلتف الايرانيون حول النظام).

أفق تطور المغرب وحيرة المثقفين

حميد باجو

هناك حدثان مهمان وقعا في الأيام الأخيرة سيكون لهما أبلغ أثر في مستقبل المغرب في السنوات المقبلة. هذان الحدثان هما مصادقة الإتحاد الأوروبي على قرار قبول التفاوض مع تركيا من أجل انضمامها إلى الإتحاد من جهة، ثم مصادقة هذا الأخير على القرار المتعلق بسياسة الجوار الموجهة إلى بعض الدول المحيطة به وعلى رأسها المغرب من جهة ثانية.

قد لا يعير الكثيرون هذين الحدثين أي اهتمام، وقد يعدون ذلك مجرد شأن أوروبي خاص لا علاقة له بنا، أو في أحسن الأحوال، أن تأثيره بالنسبة إلينا ثانوي جدا، ولكني شخصيا وكما عبرت عن ذلك لأحد الأصدقاء في جلسة نقاش، أعتقد أن أنجع برنامج اقتصادي وسياسي تم إنجازه في هذه السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين هو هذا الذي حققه الوزير الأول التركي أردوغان باقناع الأوروبيين بقبول بلاده للانضمام إليهم. فتاريخ تركيا كما هو معروف، كان دائما تاريخ الصراع والتجاذب بين الشرق والغرب، وقوتها أو ضعفها كانت دائما رهينة حالة التوازن التي تكون قائمة في كل لحظة بين العالمين. ولأن الكفة مالت في هذا المجال لصالح أوروبا في القرون الأخيرة، فإن الأتراك فهموا أن مستقبل بلادهم لا يمكن أن يكون إلا مع الغرب. هذا مافطن إليه مبكرا كمال أتاتورك حين فرض سياسته العلمانية في العشرينيات من القرن الماضي، وهذا ما فطن إليه أيضا أردوغان حاليا على الرغم من إسلاميته المزعومة، حين سعى إلى إدماج بلاده في الإتحاد الأوروبي.

هذه الحالة التركية هو مايجب أن نستوعبه نحن في المغرب وندرسه بعمق. لأن الوضع التركي ليس هناك في الخريطة الجيوسياسية للعالم مايماثله أكثر من المغرب. والمحللون الأوروبيون حين يتحدثون عن حدود فضائهم الجيوسياسي فهم غالبا مايشيرون بالمستوى نفسه إلى مابعد مضيق البوسفور كما إلى ما بعد مضيق جبل طارق. وكما أن لتركيا جزءاً من جذور تركيا التاريخية والثقافية ممتدة في الشرق، فالمغرب أيضا مثلها، على الرغم من أن لكليهما عناصره المحلية والجهوية الخاصة.

مايمكن أن نستوعبه إذن من الدرس التركي، هو أنه في ظل الاتجاه العام الحالي لتطور القوى على الصعيد العالمي، لا مستقبل لنا نحن أيضاً في المغرب إلا بجانب أوروبا. قد تبدو هذه حقيقة بسيطة وبديهية. ولكن للأسف أن الخلط الذي يحيط بها هو من القوة بحيث يخلق الغموض والبلبلة في ذهن فئات واسعة من المغاربة، ويحجب عنهم الرؤية الصحيحة لما يمكن أن يكون عليه مستقبل المغرب. كثيرون من المغاربة من بينهم عناصر عديدة من النخبة المثقفة، لم يستوعبوا بعد هذه الحقيقة: أن لا مفر للمغرب إن أراد الخروج من دائرة التخلف والفقر إلا أن يعمل كل مافي جهده للانضمام والتقرب من الفضاء الأوروبي. هذا ما فهمه مبكرا الراحل الحسن الثاني حين بادر سنة ١٩٨٣ بطلب الإنضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة آنذاك، وهذا ما يفهمه بشكل براغماتي أولئك الشباب الذين يحلمون بالهجرة أو يغامرون بحياتهم في أمواج البحر المتوسط لعلهم يصلون إلى شواطئه الشمالية. لكن الذين ولايزالون متخلفين عن الفهم هم بالخصوص تلك الفئة من المثقفين الذين يمطروننا بشعارات طنانة عن شيء اسمه (العروبة) أو (الخصوصية) أو (الهوية الحضارية الإسلامية)، .. أي كل ماورد علينا في هذا المجال من المشرق. فهم لايزالون يحدثوننا عن الوجدان القومي وعن الثوابت الحضارية، وكأنهم ينسون أن التاريخ، خاصة في القرون الأخيرة، لم تعد تصنعه الأهواء ولا العواطف الوجدانية وإنما المصالح والمصالح فقط، فأية جاذبية ستبقى لرزمة من الدواوين الشعرية تتغنى بعظمة بغداد وأمجاد العرب في العصور الخوالي أمام بريق فرص الشغل وفرص الاستهلاك هناك في الشمال!

إن هذا الخلط الذي يصيب رؤيتنا ويمنعنا من تلمس الطريق الصحيح نحو المستقبل، طريق الشمال، قد أسهمت في تكريسه أجيال مختلفة من هؤلاء المثقفين المتمشرقين، بدءا من شعيب الدكالي، الذي نقل إلينا سلفية محمد عبده، وصولا إلى الريسوني وأصحابه في التجديد الذين ينقلون إلينا الآن سلفية القرضاوي والاخوان المسلمين، مرورا بطبيعة الحال بمختلف القوميين والعروبيين الذين سبق أن جعلوا من الناصرية والبعثية نبراس طريقهم الخاص.

لقد حاول البعض من مفكرينا المتنورين، وعلى رأسهم عبد الله العروي الذي أسهم إلى جانب المهدي بن بركة في صياغة الوثيقة التاريخية المعروفة : الاختيار الثوري، في التصدي لهذا التيار المشرقي المتنامي في ثقافتنا، ودعا في كتابه (الايديولوجيا العربية المعاصرة) إلى القطيعة مع ذلك التراث القادم سواء من الشرق أو من الماضي البعيد، الذي يعرقل انفتاحنا على العصر والمستقبل. وقد وجدت دعوته بالفعل صدى لها لدى بعض المناضلين الاتحاديين، الذين مثلوا النخبة المثقفة داخل المجتمع في تلك المرحلة، ومنهم الشهيد عمر بن جلون الذي دعا إلى تبني منهج الاشتراكية العلمية، الذي هو منهج صيغ من منطلق أممي محض يتجاوز المحلية والقومية الضيقة. وانعكس ذلك أيضا في النقاش الذي دار آنذاك بمناسبة صياغة التقرير الايديولوجي الصادر عن المؤتمر الاستثنائي للحزب سنة ١٩٧٥، لكن هذه النزعة الأممية التي أسس لها العروي نظريا عبر أطروحته حول التاريخانية، وسعى عمر بن جلون إلى تصريفها سياسيا، اصطدمت بمعارضة القوميين والسلفيين داخل الحزب، وبرز في هذا المجال بالخصوص محمد عابد الجابري بدعوته الشهيرة لـ(الخصوصية)، وسيصبح هذا الأخير، بعد شعيب الدكالي وعلال الفاسي، أبرز ممثل للتيار الثقافي للمتمشرقين ببلادنا، وهو الذي سيلعب دورا أساسيا في تأطير عدد واسع من الشباب اليساري في السبعينيات ومابعدها ويوجههم في هذا الاتجاه، هؤلاء الذين صاروا جزءا أساسيا من النخبة الفكرية والسياسية للمرحلة الراهنة. ومن دون أي تقليل من أهمية البناء الفكري الذي شيده الجابري في مجال الدراسات التراثية، فإن ماهو مثار للنقاش عنده هو الذي يحاول فيه عكس تلك الخلاصات التي خرج بها من دراسته للتراث على الواقع الحاضر للمغرب وعلى الآفاق التي يرسمها للمستقبل، وهذا ماتجلى في أطروحته حول (الكتلة التاريخية)، التي هي ليست في النهاية سوى محاولة للتوفيق بين تيارين.. كلاهما وارد من المشرق هما: السلفية والقومية. ولذا فإن مايجب توضحيه هنا هو أنه حين يتكلم البعض عن حيرة المثقفين وارتباكهم أمام الوضع الجديد، فالذي يجب أن نعرفه أن المعني هنا هم هذه الفئة بالضبط من المثقفين الذين تربوا في أحضان أو تأثروا بالأطروحة الجابرية وليس كل المثقفين. فلأن الجابري يبقى حبيسا في نزعته الهوياتية أو الخصوصية التي تصور مقومات الهوية كأنها ثوابت تتعالى على التاريخ ولاتقبل التغيير، فإن كل الذين ساروا في ركبه يقفون اليوم عاجزين عن فهم مايحدث حولهم من تقلبات وأحداث سواء كان وطنيا أو عالمياً، وبالتالي، لايقدرون على إعطاء أية أجوبة ناجعة عن أسئلة المرحلة، فهم لايستسيغون مثلا أن تكون العروبة مجرد عنصر واحد من ضمن العناصر العديدة المكونة لهويتنا المغربية. واذا كانت الظروف التاريخية السابقة لمرحلة الحرب الباردة والحرب ضد الدولة العثمانية قد دفعتها لأن تلعب دورا متقدما في السياسة الخاصة بالمنطقة، فإن تلك الظروف التاريخية تغيرت كثيرا بعد سقوط جدار برلين، ولم يعد في أجندة النظام العالمي الراهن شيء اسمه الوحدة أو القومية العربية، وفي بلادنا لم يعد لهذه (العروبة) ماتقدمه من أجوبة مقنعة لإشكاليات المرحلة، العروبيون لايفهمون مثلا أن مايسمى (الهوية الإسلامية) لمجتمعنا ليس سوى كلمة فضفاضة لاتعبر عن شيء محدد في الواقع، فالإسلام هو إسلامات متعددة وقد عرف منه المغرب إسلاما رسميا مخزنيا وآخر للفقهاء المالكيين المستقلين عن السلطة، وعرف الإسلام الشعبي وإسلام الزوايا والمتصوفين ثم إسلام السلفية الوطنية وإسلام السلفية الأصولية، و(لم لا) إسلام المتنورين الديمقراطيين والإسلام الليبرالي الفرداني، وهم لايزالون يرفضون أن تكون للأمازيغية الحظوة والمكانة نفسها التي هي للعروبة، ولايعترفون بأن هذه الأخيرة مكون متجذر في هويتنا، وهي أن همشت أو طمست معالمها في مرحلة معينة كما حدث مع واقعة الظهير البربري فإنها الآن في ظل تصاعد المد الديمقراطي وتنامي حركات المطالبة بحقوق الشعوب الأصلية والأقليات، تعود بقوة إلى الساحة وتفترض أن يتم التعامل معها بالمستوى نفسه الذي يتم التعامل به مع مكون العروبة. وأخيرا، فهم لم يقبلوا يوما أن يعترفوا بأن هناك مكونا ثقافيا متوسطيا قد لعب دورا لايستهان به في صياغة هويتنا الثقافية، وذلك بفضل الاحتكاك الذي لم يتوقف يوما مع جيراننا في الشمال منذ عهد روما وبيزنطة إلى عهود البرتغال والإسبان والفرنسيين، وهذا المكون هو الذي انفتحت أمامه الآن الفرصة، بسبب اتجاهات التطور العالمي لأن يحتل الواجهة من جديد ويكون هو المعبر لنا نحو آفاق العالمية والكونية. فالهوية المغربية هي ،أولا، واقع متغير بتغير المحيط الذي يحيط بنا، وهي، ثانيا، مزيج من كل هذه المكونات، وحتى إذا ماساعدت الظروف في لحظة تاريخية معينة واحدا من هذا المكونات لأن يكون في الصف الأمامي، فلا يعني ذلك أنه سيبقى خالدا في ذلك الموقع. ولأن هؤلاء المثقفين لم يستوعبوا بعد واقع أن العروبة قد تراجعت إلى الصف الأخير في قدرتها على التأثير في السياسة العالمية الخاصة بالمنطقة، فهم لايفهمون أن القضية الفلسطينية، مثلا، التي جعلوا منها في مرحلة سابقة قضية وطنية، ليس من حل ممكن لها أبعد من الإطار الذي حددته لها اتفاقية أوسلو، أو في أحسن الأحوال مما دعا إليه نداء جنيف للمثقفين والشخصيات الديمقراطية من الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، وبالتالي فإن الاستمرار في تأجيج المشاعر المعادية للسامية ومعاداة اليهود ومعارضة كل محاولة للتقارب مع الديمقراطيين في إسرائيل هو عمل يسيء إلى هذه القضية أكثر ما يخدمها، ولايفعل غير أن يصب الماء في طاحونة المتطرفين من الجانبين، طاحونة حماس وطاحونة شارون. كما لايفهمون أن القضية العراقية، التي قلبوا الدنيا من أجلها سواء في عهد صدام أو مابعده، لن يكون لها من حل أبعد مما سيتفق عليه الكبار، أي إضفاء الشرعية الدولية على وجود القوات الأجنبية في العراق وإقحام الأمم المتحدة في الإشراف على شؤون هذا البلد ردحاً من الزمن الى أن تستوي الأمور به ويصبح ناضجا ديمقراطيا ليأخذ زمام أموره بنفسه، وبالتالي، فليس هناك من غباء تاريخي أكثر من الذي يمارسه هؤلاء المثقفون وهم يخلطون بين التطلع الحقيقي للشعب العراقي إلى الديمقراطية والحرية وبين مايقوم به أولئك الإرهابيون من أنصار بن لادن وأنصار النظام السابق من أعمال إجرامية تصنف على أنها من أعمال المقاومة والتحرر. إن صمت المثقفين الذي ينعت به المثقفون في المغرب أو في المنطقة العربية، لايجب أن يوجه إلى كل المثقفين، ولكن فقط إلى هؤلاء القوميين والسلفيين من الذين تأثروا من قريب أو بعيد بمدرسة الجابري الفكرية ومن يشابهه. أما بالنسبة إلينا نحن، الذين عانقنا النزعة التاريخية للعروي أو النزعة الأممية للمدرسة الماركسية أو النزعة الكونية في صيغتها الحالية، فليس هناك من غموض